(مَعْرفةُ القُرآن) للشَّهيد الشّيخ مُرْتضَى مُطَهَّري

◆ أ. نبيل علي صالح[1]

■ خلاصة

كرّسَ الشـيخ الشـهيد مرتضى مطهري(ره) حياته كلها في سـبيل الدفاع عن الإسـلام الأصيل النقي، من خلال عَرْضِه بأبهى صورة وأعمق مضمون، خال من التعقيد والتّكلف الفكري والعملي.

وعلى هذا الطريق، جاء كتابه «معرفة القرآن» كمادة معرفية واضحة وعميقة، خالية من أي التباس، حاول من خلالها تقديم تفسـير موضوعي للقرآن الكريـم، انطلاقاً من عدة معطيات قرآنية وعقلية وفلسـفية، دون أن ينسى المعطى التاريخي وأسـباب النزول.. ولعلّه استفاد في هذا، من الأسلوب والمنهج التفسيري لأستاذه الراحل السيد محمد حسين الطباطبائي، صاحب تفسير الميزان.

لقد تمكّنَ مطهري في إضاءاته التفسـيرية القرآنية المجموعة في هذا الكتاب، من إزالةِ كثير من الالتباسات الفكرية والمعرفية التي وقفتْ حائلاً أمام إيمان كثير من أجيال الشباب بالقرآن والإسلام، خاصة مع هيمنة وطغيان الأيديولوجيات اليسارية والليبرالية على كثير من مواقعنا الإسلامية، حيث خصّـص الشـهيد مطهري محطـات مهمة من كتابه، للـرّد على كثير من تلك الشـبهات والأفكار الهدّامة، وإبراز الصورة الحقيقية للإسلام المحمدي، إسلام القرآن والعقل والإنسانية.

الكلمات المفتاحية:

القرآن- التفسير- المعرفة- العقل- الأصالة..

1 - كاتب وباحث من سورية.

بطاقة الكتاب:

- **اسم الكتاب: معرفة القرآن**
- **اسم الكاتب: الشهيد الشيخ مرتضى مُطّهري**
- **ترجمة: جعفر صادق الخليلي**
- **الناشر: دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان.**
- **عدد الصفحات: 320 ص(2ج)**

مقدمة

عندما نتحدثُ عن أيّ كتابٍ فكري من تأليف عالمٍ جليل ومفكر مسلم رصين، كالشهيد الشيخ مرتضى مطهّري(ره)، فإننا نتحدثُ عن رجل معرفة إسلامي من الطراز الرفيع، نذرَ نفسه للإسلام، وسالَ دمه مع قلمه في سبيل رفعته وكرامة إنسانه، وإحياء لقيم دينه الحنيف..

نتحدثُ عن عقلٍ موسوعي ومعلّم أجيال، امتلك زمام المبادرة العقلية والقدرة النوعية على المخاطبة والبحث والتقصي والتحليل العميق، في أيّ موضوع فكري واجتماعي وتاريخي وقرآني، وفي كل ما يتعلّق ويتصل بمشكلات العصر الحالي.. ورغم أنه كان فقيهاً وحوزوياً (درسَ ودرّس الفقه والمنطق والعرفان والفلسفة في الحوزات والمدارس الدينية)، لكن دراسته الدينية تلك، لم تجعله مجرد عالم دين مسلم، على المذهب الإسلامي الشيعي، ينكمش على هويته الخاصة، بل كان مثقفاً ومفكراً منفتحاً على كل تيارات عصره الفكرية والسياسية والفلسفية، وصاحبَ مشروع حضاري ديني إسلامي الهوية والعمق والامتداد، عَرِف كيف يدعو له بوعي، وينشر مضامينه بحكمة ومسؤولية، ويجدد في كثير من معالمه -

المتصلة بمختلف جوانب الحياة البشرية- بكثير من الحرفية العلمية الهادفة، ولهذا لاحظنا كيفَ أنّ مفجّر الثورة الإسلامية في إيران الإمام الخميني(رض)، أشادَ بهذا العملاق الفكري، وأثنى على مؤلفاته وأفكاره، قائلاً: «أُوصي جميعَ المُثقّفين والطّلبة الجَامعيين الأعزّاء، والطّبقة المثقّفة المتنوِّرة المُلتزمة، ألا يدَعُوا الدّسائسَ غير الإسلامية تُنْسِيهم مُطالعةَ كُتب هذا الأستاذ العزيز» .

في هذه المراجعة الفكرية لأحد كتبه، وهو كتاب «معرفة القرآن»، سنُحاول تسليط الضوء على رؤية الشهيد مطهري للمعرفة القرآنية، محاولين استعراض أهم أفكاره، وإعطاء القراء فكرة شاملة عن مضامينه، بحيث تتشكل لدى القارئ الكريم رؤية صحيحة وواضحة عنه..

● في الافتتاحِ والتّمهيدِ

كتابُ معرفة القرآن للشهيد الشيخ مرتضى مطهري، هو عبارةٌ عن مجموعة من الخُطب والمحاضرات المسجلة على أشرطة كاسيت، كان الشيخ مطهري يُلقيها في طهران - ضمن جلسات وندوات أسبوعية أو شهرية مفتوحة - على مسامع مختلف المستويات الجماهيرية والطبقات الاجتماعية الإيرانية..

ليتم لاحقاً إفراغ تلك الأشرطة وكتابتها وطباعتها، لتُصبح في متناول الجميعُ ليس فقط في إيران، بل في كل الدّول التي تعشق فكر وثقافة الشيخ الشهيد مرتضى مطهري.

ولعلَّ المناخَ السياسي والفكري الذي كان سائداً آنذاك، خلال مرحلة ما قبل الثورة الإسلامية، أو حتى المرحلة التي أعقبت انتصارها بقليل، قد دفع الشهيد مطهري لبدء تركيز خطابه الفكري عن أهمية معرفة القرآن وكيفية معرفته، بعيداً عن المزاج والهوى والتحريفات الفكرية التي كانت تمارسها جماعات ثقافية وحزبية إيرانية وغير إيرانية، أقرب ما تكون للفكر المادي، حيث لاحظنا كيفَ كتبَ الشيخُ الشهيد مطهري(ره) العديد من الكتب حول تفكيك الرؤية المادية في دوافعها وأسبابها ومتبنياتها الفكرية والسياسية والفلسفية..

يبدأ الشهيد مطهّري كتابَه «معرفة القرآن» المكون من جزأين، بجزء أول، يتحدث فيه عن معرفة القرآن وأنواعها وشروطها ومعناها..

● الجزء الأول

يتألف هذا الجزء من ثلاثة فصول.. ويشيرُ الشهيد مطهري في بدايةِ مقدمة هذا الجزء إلى «أنّ معرفةَ القرآن

لكلِّ فردٍ عالم باعتباره عالماً، ولكلِّ فردٍ مؤمنٍ باعتباره مؤمناً، أمرٌ واجبٌ وضروري. إلا أنَّ ضرورة معرفة القرآن لعلماء النفس ولعلماء الاجتماع، تتأتى من حقيقة أنّ هذا الكتاب، كان له تأثير على المجتمعات الإسلامية، بل وفي مصير المجتمع البشري برمّته»[1].

وعن أنواع معرفة القرآن يميزُ الشهيد مطهري بين ثلاثِ طرقٍ لهذه المعرفة:

الأولى: المعرفةُ السندية أو الانتسابية

وهي تعني مدى انتساب الكتاب لمؤلفه، بعيداً عن النسخ والشك في الانتساب.. وقد يصح هذا الأمر في البحث عن سند أي كتاب، إلا القرآن الكريم الذي يؤكد مطهري أنه «غني عن هذا النوع من المعرفة.. إنّ علم القرآن متقدم على النسخ وعلم المعرفة بالنسخ.. فهو فضلاً عن كونه كتاباً مقدساً سماوياً، فإنه أقوى دليل وبرهان على صدق دعوى الرسول وأكبر معجزة من معاجزه»[2].

ويُتابع الشهيد مطهري رسم صورة واقعية تاريخية لنا عن رسوخ البُعد السَّندي والانتسابي للقرآن، مشيراً إلى أنّ هذا القرآن له قوة أدبية جاذبة « تشدُّ الناس إليه، وتحملهم على سرعة استيعابه، بخلاف ما هو عليه الأمر بشأن كتب الأدب الأخرى.. وقد نزل قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[الحاقة:44-46]»[3]. ورغم ظهور أخطار تتهدد القرآن في احتمال أن يتمّ تحريفه، إلا أن «ذكاء المسلمين وحُسن تقديرهم للأمور، حال دون وقوع هذا الاحتمال، إذ أنهم تنبهوا مبكراً وأدركوا أن عليهم أن يدرأوا خطر أي تغيير مُتعمد، أو غير مُتعمد في القرآن، فاستفادوا من حفظته ومن الصحابة، وأرسلوا نُسخاً مصدقة من المدينة إلى تخوم الإسلام البعيدة..»[4].

الثانية: المعرفةُ التحليلية

وهي المرحلة التي يعتبرها الشهيد مطهري مرحلة الدراسة والتحليل، لما يشتمل عليه الكتاب من مواضيع ورؤى ونظرات ومطالب ومقاصد، في كل ما يتعلق بوجود الفرد والإنسان والمجتمع، وطريقة

1- الشيخ مرتضى مطهري، معرفة القرآن، ص17.
2- معرفة القرآن، ص21-22.
3- معرفة القرآن،ص24.
4- معرفة القرآن، ص25.

عرض الكتاب لتلك المطالب والمسائل، وأسلوب معالجته لها.. حيث يعتقد مطهري أن الأسئلة الواردة المتعلقة « بوجهة نظر الكتاب في الكون والإنسان والحياة والموت.. هو ما يصطلح عليه فلاسفتنا اليوم بالحكمة النظرية.. وأما الأسئلة التي يعرض فيها الكتاب خطة لمستقبل الإنسان.. فهي رسالة الكتاب»[1].

الثالثة: معرفةُ الأصل

وهو يعني – بحسب مطهري- أنْ يبدأ المرءُ – بعد الاطمئنان إلى نسبة الكتاب إلى مؤلفه، وبعد التحليل التام لمحتواه - في البحث عن محتويات الكتاب ومطاليبه فيما إذا كانت من «إبداعات فكر المؤلف نفسه، أم إنها مدينة إلى أفكار الآخرين..»[2].

ويعتبر مطهري أنّ هذه المعرفة جزء أو فرع من المعرفة التحليلية.. « أي إننا يجب أولاً أن نعرف محتوى أفكار المؤلف بدقة، ومن ثم نتوجه إلى معرفة أصوله..»[3]. والأصالات عند مطهري ثلاثة: أصالة الانتساب، وأصالة المحتوى، والأصالة الإلهية..

وأما عن شروط المعرفة القرآنية، فيُورد مطهري عدة شروط لها، هي: معرفة اللغة العربية، معرفة تاريخ الإسلام، ومعرفة أقوال الرسول الأكرم(ص) «إذ إنه، حسبما ورد في القرآن، المفسر الأول لهذا الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ..﴾[النحل: 44]»[4].

● الفصل الأول:

إنّ للمعرفة القرآنية عند مطهري معنىً حقيقياً، وليس كما كان يتحدثُ البعض، أنّ معناه صعب مستصعب، وأنه نزلَ فقط للتلاوة والتبرك، ونيلَ الثواب والتيمن..!!. ويعتقد مطهري أن «هذه النزعة تؤدي إلى الانحراف والضلال..»[5]. كما أنه لم ينزل للتأويل الباطني، مثلما فعلت جماعات عديدة في التاريخ..

ويعود الشهيد مطهري في هذا الفصل، للتوسع في الحديث عن محتويات القرآن ومعرفته تحليلياً.. ويحدد منذ البداية أن معالجة المحتوى والمضمون سيكون كليًّا لا جزئيًّا.. وعن تعريف القرآن نفسه،

1- مرتضى مطهري، معرفة القرآن، ص26.
2- المرجع نفسه، ص27.
3- المرجع نفسه، ص29.
4- المرجع نفسه، ص32-33.
5- المرجع نفسه، ص40.

يقول الشيخ مطهري «إنّ أوّل ما يطالعنا بهذا الشأن، هو قوله إن هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله.. ورسالته هداية أبناء البشر وقيادتهم للخروج بهم من الظلمات إلى النور: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾[إبراهيم: 1]..»[1].

ومن مسائل المعرفة القرآنية، أن يعرف المرءُ لغةَ القرآن وتلاوته.. حيثُ يظنُّ البعضُ خطأً أن تلاوتَه تعني قراءته طمعاً في الثواب فقط، دونَ إدراك شيءٍ من معانيه. هؤلاء الذين يختمون القرآن مرّات عديدة، ولكننا إذا سألنا أحدهم إن كان قد فهم معنى ما يقرأ، فسوف يعجز عن الجواب».(مطهري، معرفة القرآن، ص: 53-54). ولهذا يُعتبر مطهري أنّ قراءة القرآن يجب أن تأتي ليس فقط من باب التلاوة بقصد التبرك ونيل الثواب الرباني الأخروي، بل أيضاً بقصد فهم مقاصده وغاياته، على مستوى بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة، في أخلاقها وسلوكها وعلاقاتها الخاصة والعامة، بما يستلزم مخاطبة الإنسان..» فالقرآنُ كتابٌ للقلب والروح، يُثير الأشجان، ويسيل الدموع، ويهز الأفئدة. ويصدق هذا حتى على أصحاب الكتب الأخرى ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وإذا يُتلى عَليهِم قَالوا آمنّا بِهِ إنّه الحَقُّ من ربّنا**﴾[القصص: 52]»[2].

● الفصل الثاني:

يبحثُ الشيخ مطهري في هذا الفصل، وجهةَ نظرِ القرآن في العقل، حيث يُثبت أنّ القرآن هو كتاب العقل والتفكير العقلي.. فهو يُعد العقل سنداً وحجة وله أصالة معيارية.. ومن الأدلة التي يطرحها القرآن كدليل على أصالة العقل، تبيان بعض المسائل باستخدام العلية والمعلولية.. «فالعليةُ والمعلول، وأصلُ العلية قواعد للفكر العقلاني، وهذا ما يحترمه القرآن ويعمل به. ومع أنّ القرآنَ كلام الله، وأنَّ اللهَ هو خالقُ العلة والمعلول، وأن الكلام يدور على ما وراء ما تقع العلة والمعلول دونه، فإنه مع ذلك، لا يغفل عن ذكر السببية والمسبّبّة لهذا العالم، ويضعُ الوقائعَ والظّواهر تحتَ سيطرة هذا النظام. من ذلك الآية التي تقول: ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد: 11]»[3].

ومن دلائل كون العقل حُجّةً وسنداً في نظر القرآن، وجود فلسفة للدساتير والأحكام. « أي إنّ العلّة

1- مرتضى مطهري، معرفة القرآن، ص51.
2- المرجع نفسه، ص54-60.
3- المرجع نفسه، ص73.

في وضع الدستور هي المصلحة»[1]. وإدراك المصلحة يعني وجود دور للعقل، حيث يجب عليه أنْ يتأمّلَ في غاية الأحكام ويتفكر عميقاً في فلسفتها، مع أنّ القرآن الكريم بيّن حقيقتها ودورها ومردوديتها الفردية والمجتمعية، كبيانه عن الصلاة وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر مثلاً.. « يقول القرآن: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ..**﴾[البقرة: 31]، ثمّ يذكر في مكان آخر فلسفة هذا الأمر: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ..**﴾[العنكبوت: 45]. فيشرح الأثر الروحي للصلاة، وكيف أنها ترتفع بالإنسان عن الفحشاء، فيبتعد عن المفاسد والموبقات..»[2].

كما يشيرُ مطهري إلى دليلٍ آخر على موضوعة الحجية العقلية، وهو مكافحة شَطحات العقل، حيث أنّ فكر الإنسان (الذي هو نتاج عقله)، قد « يقع في الخطأ في كثير من الأحيان، وهذا أمرٌ معروف وشائع، ولكنه ليس مقصوراً على العقل، فالحواس والمشاعر تُخطئ أيضاً..»[3]. والاستدلال العقلي الخاطئ لا يُعالج - في نظر مطهري- بالإلغاء، بل يجب البحث عن الأسباب والوسائل التي تحول دون العقل وارتكاب الخطأ.. ورغم أن كثيراً من الفلاسفة والمفكرين والحكماء الذين مرّوا في مسيرة التاريخ، حاولوا التقليل من خطأ العقل والاستدلال العقلي، منذ أيام الإغريق، من خلال الاستعانة بالمنطق الأرسطي، ولكن بقيت للعقل عثراته ونقائصه وشطحاته.. فكيف عالج القرآن هذه الثغرة؟!.

لقد أوضح مطهري أصلَ نشوء خطأ الاستدلال العقلي، بحسب ما يراه القرآن الكريم، الذي أشار أولاً إلى أهم سبب وهو اتباع الظن.. وعلى هذا الصعيد يؤكد مطهري «أنَّ الإنسانَ يأخذُ الشكَّ مأخذ اليقين. إذا تقيد الإنسان دائماً باليقين ولم يقبل بالظن، فلن يقع في الخطأ. وهذا ما يُؤكده القرآنُ كثيراً، حتى إنه يُصرّحُ بأن أكبر مزالق الفكر البشري هو اتباعه الظّن.. وفي مكان آخر يخاطب النبي قائلاً: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾[الأنعام: 116]»[4].

والمنشأ الثاني لحصول الخطأ، – خاصّة على الصعيد الاجتماعي- في مادة الاستدلال، هو التقليد، فترى بعض الناس قد يؤمنونَ بصحة هذا الأمر أو ذاكَ فقط، لأنّ الأقدمين آمنوا به، أو لأنَّ كثيراً من

1- مرتضى مطهري، معرفة القرآن، ص75.
2- المرجع نفسه، ص75.
3- المرجع نفسه، ص76-77.
4- المرجع نفسه، ص79-80.

أفرادِ المجتمع يثقون بصحته.. في حين أن القرآن الكريم يرفض هذا النمط من التفكير التقليدي، ويُنبه لخطورته، ويطلب من الناس أن يَزِنوا الأمور فقط بمنظار العقل.. «والقرآنُ يضعُ اتّباعَ الآباء والأجداد، في معظم الأحوال، في تعارض مع العقل. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: 170]»[1].

● **الفصل الثالث:**

في الفصل الثالث والأخير من هذا الجزء (الأول)، يتحدثُ الشهيد مطهري عن القلب في نظر القرآن، حيث يؤكد على أنّ المقصود من لفظ «القلب»، أن يكون أداة من أدوات المعرفة الحقيقية التي يطالب القرآن الكريم بضرورة رعايتها والحفاظ عليها، وتعهدها بالتربية والاهتمام.. فـ« نقرأ عن تزكية النفس، ونور القلب، وصفته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا﴾[الشمس: 9]، ﴿ربّنا لا تُزغْ قُلوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران: 8]، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ..﴾[البقرة: 7]»[2].

إنّ هذه الآيات الكريمة الواردة في القرآن حول القلب، تُعطينا فكرة عن طبيعة الجو والمناخ الذي يريده القرآن للإنسان، وهو جو الخير الروحي والمعنوي الذي يجب على الإنسان « أن يُحافظ عليه نظيفاً، نقياً»[3]. ولكن الإنسان لا يعيش في مجتمع ملائكي، بل على أرض نسبية، ومجتمع مليء بأجواء الفساد والظلم والحرمان والشر.. حيث يرى مطهري ضرورة أن يتمسكَ الناس أكثر بكتاب الله تعالى للحفاظ على طهارتهم وروحيتهم الخيّرة..

الجزء الثاني

يُخصّصُ الشهيد مطهري هذا الجزء من الكتاب للتفسير القرآني.. فبعد التعرّف على القرآن الكريم في معناه وخصائصه ومقاصده ..إلخ، ينتقل للبدء بتفسير آياته.. والواضح أنَّ عمله التفسيري هذا هو عمل مستقل تماماً عمّا سبق أن كتبه الشيخ مطهري من أفكار ومقالات ودراسات قرآنية، حول قضايا فكرية ومعرفية وسياسية في مجالات فلسفة التاريخ والمجتمع والقرآن وأصالة الروح، وغيرها من الدراسات

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص81.
2- المرجع نفسه، ص90-90.
3- المرجع نفسه، ص92.

والقضايا الإسلامية الأخرى، التي كتبها وأبدع فيها الشهيد مطهري، في ضوء فهمه ووعيه العميق للرؤية القرآنية بشكل موضوعي..

وقد اقتصرَ كتابه هذا (معرفة القرآن) في جزئه الثاني على تفسير كل من سورتي الحمد (الفاتحة) والبقرة.. وطريقة الشيخ مطهري في التفسير كانت تنطلق - بحسب ما اتّضح في هذا الجزء- من خلال قيامه بعرض الآيات التي ينوي تفسيرها، ثمّ شرح معاني الكلمات الصعبة، مع توضيح اختلافها عن الكلماتِ الأخرى، بعد ذلكَ يباشرُ بالبيانِ والتحليل والشّرحِ، دونما نسيانه لأسباب نزول الآيات، مع توافره على شرح تاريخي عنها.. فهو تفسيرِ شامل وواضح البيان والأفكار والمقاصد، والغاية تكمن في تركيز الرؤية للقرآن، وأنه كتاب هداية، كوني إنساني شامل..

سورةُ الفاتحة

ابتداء الأعمال باسم الله:

يبدأ الشّهيدُ الشيخ مطهّري تفسيرهُ لسورة الفاتحة بالحديثِ عن البَسملة، حيث يشرح لنا السبب أو الدافع وراءَ الطلب من الإنسان البَدءَ بها حالَ مباشرته لأعماله الحياتية المتعددة (الخاصة منها والعامة)، وهو « أنه يريدُ أنْ يضفي القدسيةَ على عمله في ظلِّ قدسية الله وسُموه وكرمه.. إنه يريد أنْ ينتسب عمله لله ابتغاءَ بركته..»[1].

- **الله:**

ينتقل مطهري للحديث عن اسم «الله» تعالى.. فيعتبر أنّ هذا الاسم ليسَ من أسماءِ العلامات، حيث أن «كل أسمائه تبينُ حقيقة من حقائق ذاته المقدسة.. ونجدُ في القرآن ما يقرب من مئة اسم من أسماء الله، وهي في الحقيقة مئة صفة من صفاته..»[2].

- **الرحمن الرحيم:**

وفي تفسيره للرحمن الرحيم يؤكد مطهري أننا «عندما نقول الرحمن الرحيم، يتجسَّدُ في ذهننا معنيان: الأول، هو حاجة البشر العظيمة، وكل المخلوقات التي تمدّ يدها جميعاً، كل بطريقته، نحو الغني بتضرّع متوسّلين. والثاني، إنه يُرسل إليهم رحمته الواسعة فيُعطيهم سؤلهم، ويقضي حاجتهم»[3].

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص105.
2- المرجع نفسه، ص107.
3- المرجع نفسه، ص112.

ويشرح مطهري الفرق بين الرحمن والرحيم قائلاً: « الرحمن على وزن فعلان، تدل على الكثرة والسعة، وتدل على أن رحمة الله منتشرة، وتشمل كل شيء.. كما وردَ في سورة الأعراف، الآية 56: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾.. أما الرحيم، فهو على وزن فعيل، فتدل على رحمة من الله دائمة لا تنقطع»[1].

• الحمد لله:

يعتقد الشيخ مطهري أنَّ معنى الحمد في الفارسية، المدح، والشكر.. «وكلمة المدح قريبة من الحمد، بل يرى بعضهم أنّ هناك احتمالاً قويًّا أن تكون اللفظتان لكلمة واحدة.. والمدح من المشاعر التي يختص بها الإنسان. فالإنسان هو وحده الذي يبلغ من الإدراك والإحساس، بحيث إذا واجه الكمال والجلال والبهاء، أثار فيه هذا الشعور رد فعل يحمله على المدح.. إحساس يعجب بالجمال والجلال...»[2].

• ربّ العالمين:

يُلفتُ مطهري النظرَ في بداية شرحه للآية، إلى فائدة لغوية، حيث يعتبر أن كلمة «رب» تأتي من «رَبَبَ» لا من «رَبيَ». فالمُربيّ مأخوذة من مادة «ربيّ». وقد تأتي أحياناً بمعنى «صاحب» أو «ولي الأمر».. ولكن كلمة «رب» نفسها فيها مفهوم يؤدي معنى الألوهية، بحسب مطهري. و» كذلك معنى ولي الأمر أو صاحبه، ومعنى المُربي، والله هو وحده ولي أمر العالم كله، وموصله إلى مرتبة الكمال»[3].

• مالك يوم الدين:

يُشير مطهري إلى وجود قراءتين لكلمة «مالك»، فهناك من يقرأها «مالك»، وهناك أيضاً من يقرأها «مَلِك».. حيث إنّ الأمر عندما «يتعلق بالله، وهو خالق الكون، وإرادته فوق كل إرادة، فإنّ توحُّد المعنى في ملك ومالك أمر بيّن، وهاهنا تكون الرابطة الحقيقية بين المالك والمملوك. وقد جاء في القرآن بخصوص يوم القيامة: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[غافر: 16]. وفي آية أخرى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**﴾[آل عمران: 26]»[4].

• إيّاكَ نعبدُ وإيّاك نستعين:

يعتقد مطهري أنَّ الإسلامَ كله توحيد، سواء في الأصول العقائدية أو الأخلاقيات أو التربية والأحكام

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص112-113.
2- المرجع نفسه، ص115-116-119.
3- المرجع نفسه، ص122.
4- المرجع نفسه، ص129.

الاجتماعية والتعاليم اليومية.. والتوحيدُ توحيدان: «نظري وعملي. التوحيد النظري يتعلق بعالم المعرفة والفكر، أي معرفة الله بالوحدانية. والتوحيد العملي، هو جعل الذات عملياً ذاتاً واحدة باتجاه الذات..»[1].

ويؤكد مطهري أن مرحلة التوحيد هذه (يقصد التوحيد النظري) لا تكفي ليكون المرء موحداً، والشرط هنا هو أن عليه أن يعرف ويعي التوحيد العملي.. أي أن يكون عبداً لله.. فـــ»الإنسان العَبد والمعبد، يعني الإنسان المطيع المسالم الطيِّع الذي لا يعصى، فهي حالة الإطاعة والانقياد التي يجب أن يتّصف بها الإنسان أمام خالقه..»[2].

وأما آية «وإياك نستعين»، فيعتبرُ مطهري أنها تعني إرادة ورغبة الإنسان في طلب العون من الله فقط لا من غيره.. و»هذه الجملة تُفيد التوحيد في الاستعانة، ومعنى ذلك هو أننا نطلب العون والمساعدة منه، وأننا نعتمده وحده.. ولكن الآية لا تعني أنّ الإنسان يجب ألا يمدّ يده طلباً للعون أبداً، ولكنه يجب ألا ينسى، وهو يطلب العون، سبب الأسباب، وأن يدرك أن الوسائل كلها بيده»[3].

ولا ينسى مطهري في سياق تفسيره للآيات، أن يضمّن تحليله التفسيري بأحاديث وروايات تاريخية موثقة في سياق الدلالة على مصداقية شرحه وتحليه..

• إهدنا الصّراط المستقيم:

وبخصوص هذه الآية من سورة الفاتحة، يُشير مطهري لعدة نقاط مهمة، تتمحور حول أن الكائنات والموجودات كلها «تسير في مسيرة كونية لا إرادية حتمية نحو الله في صيرورة: ﴿**أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُور. وإن ربّكَ هو المُنْتَهى**﴾[الشورى: 53]. وأن هنالك بين الطرق طريق مستقيم، هو طريق السعادة.. «طريق يوصل إلى الكمال الحقيقي الذي يقترب فيه من حضرة الله.. ويتم ذلك بمساعدة الأنبياء وهدايتهم، وهم الذين أرسلهم لهداية الإنسان»[4].

• صِراطَ الّذينَ أنعَمتَ عَليهِم غيرِ المَغْضُوبِ عَليهِم ولا الضّالّين:

يقسّم الشهيدُ مرتضى مطهري الناسَ – من حيث مقام العبودية - إلى ثلاثة أقسام، فقسمٌ منهم طوّروا طريق العبادة، وهم المشمولون برحمة الله.. وقسم ثانٍ هم الذين عصوا الله، وعبدوا إلهاً غيره، ﴿**وَمَن**

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص132.
2- المرجع نفسه، ص139.
3- المرجع نفسه، ص148-151.
4- المرجع نفسه، ص152-156.

﴿يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾[طه: 81]، وقسم أخير بين هؤلاء وهؤلاء، هم الجماعة المذبذبة، «لا يرون طريقاً واضحاً أمامهم ليسيروا فيه، تراهم حيارى ضائعين، يتخذون في كل لحظةٍ سبيلاً ولا يصلونَ نهاية. وهؤلاء يُعبر عنهم القرآن بالضالين..»[1].

بعد أن ينتهي مطهري في كتابه من تفسير سورة الحمد، وهي أوّل سورة في القرآن، ينتقل إلى سورة البقرة.

سورة البقرة:

وكعادته في بدايةِ كلِّ تفسير لآياتِ القرآن، يستعرض مطهري الآيات التي يريدُ تفسيرها، ثم ينطلق لبيان معانيها، مستعيناً بأقوال للرسول الكريم(ص) والأئمة الأطهار، وشهادات وأقوال لأدباء وشعراء حول الغايات والمقاصد التي تتوجه إليها..

سُمّيت السّورةُ بسورة البقرة، نسبة لورود اسم بقرة بني إسرائيل فيها، وهي تبدأ بأحرف مقطعة هي (أ ل م)، ويعطينا الشيخ مطهري عدّة تفسيرات أو آراء حول أسباب وجود تلك الأحرف، فمن قائل بغموض هذه الحروف، «وأنها سلسلة رموز بين القائل والسامع، أي بين الله ورسوله، تُشير إلى معارف ومعلومات أرفع من مستوى العامة.. إلى قائل بأنها أسماء السور التي بدأت بها.. إلى قائل بأنها قَسم.. فكما أنَّ القرآنَ يُقْسم بسائر مظاهر الخلق، بالشمس، بالقمر بالنجم، بالنهار، بالليل، وبالنفس، فإنه يقسم أيضاً بالحروف. أي أن معنى أ- ل- م- هو: أقسم بـــ أ- ل- م. وعندما يُقسم الإنسان بشيءٍ، فإنه في الحقيقة يُقسم بشيء يكون محترماً عنده..»[2].

إنَّ تحليل الشهيد مطهري للحروف المقطعة قادَه للحديث عن أهمية حروف اللغة العربية ككل، مؤكداً على الدور الحيوي الهام، الذي لعبته تلكَ الحروف في الحياة الاجتماعية للبشر في مسيرتهم التكاملية، خاصة على صعيد نجاحهم في بناء الحضارات وتمدنهم وعمرانهم المادي.. والإنسان « لو لم يستطع أن يصنع من أصواته حروفاً، كالبُكم، ولو لم يكن قادراً على التكلم وإيصال مقاصده إلى الآخرين، لما كان هناك علم ولا تمدّن أو صناعة»[3].

ولهذا فإنّ الحروفَ المقطعة – التي هي حروف اللغة العربية البالغة 28 حرفاً- هي بمثابة أساس البناء، وهي في متناول الجميع. «ولكن هل باستطاعة الجميع أن يقولوا قولاً رفيعاً؟.. فالقرآن إذاً يريد أن يقول:

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص158.
2- المرجع نفسه، ص163.
3- المرجع نفسه، ص164.

ها هي المواد الأولية التي صنع منها القرآن... فتعالوا واصنعوا منها مثله»[1].

وهذا مشهد إعجازي للقرآن الكريم، إذ أنه من خلال حروف اللغة، تمّ تأليف كتاب فريد من نوعه، لغة وبياناً في طراز بديع متناسق.. وهذا البيان إعجازي أيضاً من ناحية أخرى يطرحها مطهري..

وبعد حديثه عن الحروف المقطّعة، واستعراضه لمعانيها والإعجاز اللغوي للقرآن، ينطلق الشهيد مطهري شارحاً ومفسراً لآيات سورة البقرة.. ليبدأ من قوله تعالى:

• (ذلك الكتاب لا ريب فيه):

فالله تعالى هنا لا يقولُ «هذا الكتاب» بل «ذلك الكتاب»، وفي هذا تعظيم.. ومن المعروف أن الإشارةَ للبعيد في اللغة العربية، مظهرٌ من مظاهر التعظيم للشيء.

فهذا كتاب عظيم، لا شك بوجوده في معانيه وأحكامه ومعاييره.. في أصالته وإعجازيته.. في قداسته وإيمان الناس به.. وكل من يريد أن يفهمه يجب عليه أن يقترب منه، فيقرأه ويرجع إلى تفاسيره، وأيضاً أن يعمل به.. وأما من يشك ويرتاب فيه، فربما يكون معه كل الحق.. والسبب أنه بعيد عنه، لم ينظر فيه، ولم يقرأه، ولم يحاول الاطلاع على ما فيه من أفكار وطروحات، ولم يختبره في مواقع العمل كما يقول مطهري[2].

• (هُدى لِلمتّقين):

القرآن كتاب هداية للمتقين، الذين هم الباقون على فطرتهم الأولى. «والقرآن على وجه العموم، يرى أن كل إنسان يولد طاهراً، أي مجهز بتقوى ذاتية، ولكنه قد يتلوث بالتدريج بمفاسد المحيط والبيئة، فيخرج عن باطن الفطرة، فيكون مسخاً»[3].

• (الذّين يُؤمنون بالغَيْب):

وهي صفة للمتقين الذين يهديهم الله من البداية إلى الإيمان بالغيب.. والغيب لا يقتصر بحسب مطهري على الأمور الحسية التي نراها ونعاينها ونلمسها.. بل « إنّ المُحسّات هي الطبقة الخارجية من العالم، والقسم الأعظم منه (من عالم الوجود) وراء ذلك. فالحسّ يسمى الشهادة، وغير المُحَس اسمه الغيب»[4].

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص165-166.
2- المرجع نفسه، ص170.
3- المرجع نفسه، ص172.
4- المرجع نفسه، ص173.

والإيمان بالغيب كصفة من صفات المتقين، يريد القرآن من ذلك، أن يبعدنا عن النظرة الضيقة التي تعتبر عالم الحس هو كل شيء، ويعطينا رسالته في ضرورة أن يؤمن الإنسان بأن عالم الشهادة هذا، بمحسوساته وماديّاته، ليس سوى قشر الوجود كما يقول مطهري..

• (ويُقيمون الصّلاة):

يتعلق الإيمان بالغيب كأصل معياري أول، بطبيعة النظام الفكري العقائدي الذي يُؤمن به المسلم ويلتزمه كرؤية كونية وحياتية.. وأما الأصل الثاني، فـــ»يرتبط ببناء الذات، والأصل الثالث هو الإنفاق، ويتعلق ببناء المجتمع»[1].

• (وممّا رَزَقْناهُم يُنفقُون):

والإنفاق المقصود هنا بحسب مطهري، هو «إزالة النفق والفقر.. وفلسفة الإنفاق هنا لا تعني ملء الفراغ الاجتماعي فحسب، بل إن لها علاقة ببناء الإنسان أيضاً.. وهذا ما يتبينُ من القرآن المجيد، حيث يخاطب الرسول الكريم قائلاً: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم..**﴾[التوبة: 103]»[2].

• (والذين يُؤمنون بما أُنْزل إليك وما أُنْزل من قبلك):

يُتابع الشهيد مطهري تفسيره لآيات سورة البقرة.. ففي هذه الآية، نجد أنّ هناك صفة أخرى للمتقين، وهي الإيمان بالوحي.. ويعتبر مطهري أنه قد يُوجد أناس يؤمنون بالوحي وفي الوقت نفسه لا يؤمنون به. كيف ذلك؟ يشرح مطهري قائلاً: « إنّ المرء يقبل بالقرآن كتاباً من أمهات الكتب في العالم، ويعتقد بأنه يحتوي على تعاليم مُنجية، إلا إنه لا يراه كتاب وحي أنزله الله.. ولعل هذا أكثر ما يصحّ على غير المسلمين..»[3].

• (وبالآخرة هُم يُوقنُون):

وهذه صفةٌ أخرى للمتقين.. إنهم يؤمنونَ بالآخرة والبعث والنشور.. ويعتقد مطهري، « أنَّ الإيمانَ بالخلود من سمات الأديانِ الإلهية، وهي من الأفكارِ القادرة على توجيه العالم، ذلكَ لأنَّ المذاهب المادية التي لا تؤمنُ بالخلودِ، وترى الإنسانَ كالفقاعة إذا انفجرت ذهبت هباء، لا تعني سوى اللا شيئية وسوء الظن بالوجود..»[4].

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص175.
2- المرجع نفسه، ص177-178-180.
3- المرجع نفسه، ص181.
4- المرجع نفسه، ص184.

• (أُولئكَ على هدىً من ربّهم وأولئك هُمُ المُفلحون):

يرى مطهري هنا، أنّ اللهَ تعالى هو الذي يرشدُ العالمَ وكلّ الكائنات إلى طريق الكمال، «فبعضٌ يهديهم هداية تكوينية، وبعض يهديهم هداية تشريعية، أي عن طريق الأنبياء والمرسلين.. وهؤلاء وحدهم هم الناجون»[1].

• (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ):

يعتقد مطهري هنا، أنَّ «كلمة كافر لا تطلقُ في أغلبِ الموارد على منْ لم يكنْ مُسلماً، بل إنه يقصدُ بالكافرين أولئك الذين جاءتهم الرسل ودعتهم إلى الحقيقة التي اكتُشفت لهم، ولكنهم واجهوا الرسل وأنكروا..»[2].

ويُؤكد مطهري على «أن الكفر في مصطلح القرآن يعني الإنكار، وستر الحقيقة، والكفار هم الذين يتخندقون في جبهة ضد الأنبياء والمرسلين..»[3].

• (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ):

يتحدثُ القرآن الكريم في هذه الآية عن النفاق والمنافقين، ويعرّف مطهري النفاق في كتابه معرفة القرآن، بأن «يكون المرء ذا وجهين، أي أن يكون في الباطن شيئاً، وفي الظاهر شيئاً آخر.. والنفاق ناشيءٌ عن تكامل الإنسان.. لأنه بات أقدر على التصنع والتظاهر.. فكلما تقدم الإنسان في مضمار التمدن، ازدادت قدرته على النفاق. فلم يكن الإنسان قبل ألف سنة يعرف من النفاق عشر معشار ما يعرفه اليوم»[4].

• (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا):

يُشير مطهري هنا، إلى أنّ الله تعالى لم يستخدم كلمة «يخدعون» بل يُخادعون، والسبب «أنه ما من أحد يستطيع أن يخدع الله..»[5].

• (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ):

يُؤكد مطهري في شرحه لمعنى هذه الآية، على أنه ليس من المُمكن خدع الحقيقة والواقع.. « فمن يتصدّى لخدع الحقائق، فإنه في الواقع يخدع نفسه. فقد يستطيع المرءُ أن يخدع الطبيبَ، ولكنه لن يخدعَ

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص185.
2- المرجع نفسه، ص187.
3- المرجع نفسه، ص189.
4- المرجع نفسه، ص194-195.
5- المرجع نفسه، ص198.

الطبّ»[1]. بمعنى أنّ الحق والحقيقة لا يمُكن أن تنطلي عليهما خدعة.

• (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ):

يعتقد مطهري في شرحه لمعنى الآية، أنَّ أصل المشكلة في موضوعة الإيمان تكمن هنا في مرض القلب، وما ينشأ عنه من جملة أمراض أخرى، روحية ونفسية.. فقد «وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى أمراض القلب: مرض التكبر والاستبداد، مرض التعصب للخرافات القديمة، مرض اتّباع الآباء والأجداد، مرض اتّباع الكبر والكُبراء..»[2].

• (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ):

يُشير مطهري إلى أنّ الآية تُؤكد أنّ هؤلاء هم وحدهم المفسدون، وأن أيّ مفسد آخر لا يعدُّ مفسداً بإزائهم. أي إنّ الفساد تجسّد فيهم..»[3].

• (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ):

يعتقدُ مطهري أنّ أداةَ (ألا) في هذه الآية، «تنبيه للمسلمين أن احذرُوا هؤلاء، فإنهم سفهاء، وإنهم في درجة من الظلام دون أن يدركوا ما هم فيه..»[4].

ويستطرد مطهري شارحاً أنواع الجهل ومعانيه، حيث يميزُ بين الجهل البسيط والجهل المُركّب، مؤكداً على « أن المنافقين هم من ذوي الجهل المُركّب، وهؤلاء لا يعلمون، ولا يعرفون أنهم لا يعلمون، لا يشعرون، ولكنهم يحسبون أنهم يشعرون»[5].

• (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ):

يستمرُ مطهري في شرح الآيات التي تتحدثُ عن المنافقين في صفاتهم وأعمالهم، فهؤلاء طغاة، « والله يزيد من انغمارهم في الطغيان حتى تُصيبهم الحيرة، وينتابهم الارتباك العام، فلا يدركون ما يفعلون»[6].

يستمر الشهيد مطهري في تشريحه لموضوع النفاق وكيد المنافقين ومخادعاتهم، فيشير إلى أن القرآن الكريم ضرب لنا مثلين « لهذا النوع من الكيد والمخادعة، نرى فيهما وجهاً مهماً من وجوه فلسفة

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص198.
2- المرجع نفسه، ص200.
3- المرجع نفسه، ص203.
4- المرجع نفسه، ص203.
5- المرجع نفسه، ص206.
6- المرجع نفسه، ص206.

التاريخ في نظر القرآن، بحيث يمُكن القول: إنّه أصل من أصول الفكر القرآني، ونظرة توحيدية من نظراته إلى العالم..»[1].

وهنا يتوسعُ مطهري في الحديث عن هذه النظرات الخاصة بالعالم، والتي قالت بها فلسفات كثيرة معظمها كانت لها اتجاهات مادية صرفة، ويشير إلى «وجود نظريات وآراء ورؤى متعددة بخصوص العالم عموماً، وبخصوص الإنسان، والمجتمع البشري، منذ بدايته وحتى مستقبله الآتي، من حيث الخير والشر، والجودة والرداءة، والحق والباطل، وهل إن وجود العالم حقّ وخير، أم إنه هباء وباطل وشر،...»[2].

ولكن نظرية الإسلام حول كل تلك المواضيع، هي النظرية الحق كما يعتقد مطهري في تفسيره، فـــ «القرآن المجيد يرى أنّ نظام الخليقة نظام خير، أي إنه، مع قوله بوجود الخير والشر في هذا العالم، فإنه يعتقد بانتصار الخير على الشر، كما أنّ نظرة القرآن تقوم على « أنّ الحق والباطل كانا دائماً موجودين على امتداد التاريخ، وأن النزاع بينهما من طبيعة البشر، لأنّ الإنسان كائن ذو طبيعتين وسجيتين، تلك الطبيعة التي تقول عنها الأخبار والروايات، إن الله قد خلق فيها الشهوة والعقل. ولكن القرآن يرى أيضاً أنَّ النّصر في هذا النزاع الطويل عبر التاريخ للخير، فالعدل والنور دائمان، والظلمة والشر مؤقتان.. والأصالة هي دوماً للحق»[3].

نعم، القرآن يقول بحتمية الصراع بين الحق والباطل، عبر مظاهر كثيرة متعددة فردية ومجتمعية، تظهر في مسيرة التاريخ كله، بل هي جزء من فلسفة هذا التاريخ، ولكنه من جهة أخرى يؤكد على أنْ لا أصالة للباطل.. « فكلّ مجتمعٍ سادَ فيه الشّر، وطغى فيه الباطلُ، فذاكَ مجتمعٌ آيلٌ للزوال لا محالة، ولا يبقى إلا المجتمع الذي يكونُ فيه الحُكمُ للحق»[4].

ويتابع الشهيد مطهري شرحه التفسيري، الغني بالتحليل والدروس التاريخية والاجتماعية، لسورة البقرة، ولكن لم يُكمل شرحه لهذا السورة في هذا الكتاب، حيث وصل فقط للآية 24.. وطرح أكثر من موضوع للبحث والتحليل، ورد ذكره في الآيات التي شرحها.. ومن أهم تلك المواضيع:

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص217.
2- المرجع نفسه، ص218.
3- المرجع نفسه، ص: 228.
4- المرجع نفسه، ص: 237.

1 - مخاطبو القرآن:

يعتقدُ مطهري أنَّ كلَّ نظريةٍ أو رؤية أو مدرسة أو عقيدة (إلهية أم وضعية)، لها رسالة ومبادئ ومفاهيم ترتبط بغايات ما، وبالتالي، لها مخاطَبُون تتوجه بفكرها وخطابها ومنظومتها الفكرية ورسالتها إليهم.. والإسلام كدين ومنظومة عقائدية إلهية له جمهور ومخاطبون، يُريد منهم أن يطلعوا على أفكاره، ويتمعنوا في رسالته، يمُكن أن نُحدّدهم من خلال آيات القرآن، حيث تتّضح لنا الحقيقة، وهي: إنّنا في كل نداءات القرآن لا نجد نداءات تقول «يا أيها العرب» أو «يا أيها القرشيون» أو «يا أيها الشاميون». بل نجد إن نداءات القرآن على نوعين: فمرة يكون النداء: «يا أيها الناس»، وهو نداء موجه إلى كل البشر، ومرة أخرى يكون النداء موجهًا إلى المؤمنين، « يا أيها الذين آمنوا»[1]. بما يعني أن هذا الدين العظيم، هو دين عالمي لم يأت لفئة أو جماعة أو إثنية أو قومية بعينها، بل جاء للبشرية جمعاء.. لقد جاء للإنسانية في كل مراحلها التاريخية، فالإسلامُ لا يرى وجدان الإنسان في قوميتهِ، ولا في عنصره، ولا في طبقته، إنمّا يراه في فطرته، ويخاطبه فيها.

2 - رسالة التوحيد (الشرك والتوحيد):

يُخاطب الله تعالى فطرة الإنسان، فكل إنسان عابد بالفطرة، يريد أن يقدس شيئاً ما، فينزهه ويسعى للتقرب إليه.. والقرآن يطلب من هذا الإنسان الساعي للعبادة، أن يعبد الله الواحد الأحد.. وهذه هي رسالة القرآن، «أيها الإنسان، اعبد ربك، الذي خلقكَ وسوّاك..»[2]. ولكن الإنسان في مسيرته الحياتية قد ينحرف ويعبد هواه وشهواته ومصالحه على حساب عبوديته لله تعالى، بمعنى أنه قد يعبُد أصنام الدنيا وينسى عبادة الله، بل وقد يشرك به.. والشرك كما يوضح مطهري، «نقيض التوحيد. ويعني أن يضع الإنسانُ أحداً غير الله في موضع الله.. يكون قد جعل لله شريكاً في العبادة»[3]. ولهذا فالإنسان مطالب بالتوحيد والعبودية لله تعالى، لأن عبادته هي الحرية والتحرر..

2 - المعجزة:

في شرحه للآيتين (23) و (24) من سورة البقرة ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ**

1- الشيخ مطهري، ص: 246-247.
2- المرجع نفسه، ص251.
3- المرجع نفسه، ص253.

﴿مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: 23-24]، يتحدثُ مطهري عن موضوع الإعجاز والمعجزة، ويُؤكد – بعد استعراض فكري معرفي وفلسفي معمق لمعنى الإعجاز والمعجزات- أنّ القرآن هو المعجزة الأساسية لعصر ختم النبوات والرسالات، حيث «إنه بالنسبة لدين خالد يريد أن يبقى قروناً طويلة بين الناس، لن تكفيه معاجز مؤقتة قصيرة العمر. إنّ ديناً هذا شأنه ينبغي أن تكونَ له معجزةٌ خالدة أيضاً. لذلك فإنّ معجزة خاتم الأنبياء الأصيلة جاءت على هيئة كتاب..»[1]. وهو القرآن الكريم «الذي يكمن إعجازه عموماً في جانبي القرآن اللفظي والمعنوي، أي الجانب الجمالي والفني، والجانب العلمي والفكري»[2]. فالقرآن الكريم - الذي جاء في عصر الفصاحة والبلاغة والأدب (والشعر الذي كان ديوان العرب)- لا مثيل ولا نظير له من حيث الفصاحة والبلاغة والجمال، و»هذا ما يؤكده كثير من علماء اللغة والبيان والمطلعين على لغة القرآن، وحتى الأجانب الذين درسوا اللغة العربية»[3].

وفي نهاية مطالعتنا ومراجعتنا لهذا الكتاب المهم، يُمكننا القول: إنَّ ما يميز تفسير مطهري للقرآن، (وقد اقتصر هنا على سورة الفاتحة وجزء من سورة البقرة)، أنه تفسيرٌ ينطلق من طريقة تفسير القرآن بالقرآن، وهي طريقة الفيلسوف والمفسّر الكبير محمد حسين الطباطبائي (صاحب تفسير الميزان)، مع الاعتماد على المنهج العقلي والاستدلالي، والتعمق في دراسة الظواهر التاريخية والاجتماعية التي يشيرُ إليها القرآن الكريم، كما يعكسُ تفسيرُ مطهري الثقافةَ الواسعة له، والإلمام العميق بقضايا العصر ومختلف إشكالياته، بحيث يتضمن تحليلات فكرية واجتماعية وسياسية، تلتصق بانشغالات الناس وهمومها وتحديات وجودها، في مختلف مواقع حياتها ومعايشها.

1- الشيخ مطهري، معرفة القرآن، ص296.
2- المرجع نفسه، ص300.
3- المرجع نفسه، ص303.